(٤) المرثية الجماعية (الشريف الرضى)

وهى إحدى يائيات الشريف الرضى فى رثاء الحجيج ، حيث فرض عليه معايشه تجربة الفقد وحرمان الذات وضياع الأمل على النحو الذى عاشه الأسير والراثية والمجاهد جميعا ، فهو - أى الشريف - يصور فى موقفه حواراً مع الحجيج ، أو من خلالهم ، لمجرد الأمل فى استعادة ذكريات له كثيرة فى الأماكن المقدسة ، وليكشف جوانب من آلامه ، وحزنه بسبب من عجزه عن معاودة زيارتها ، وربما أشار بهذا المنع إلى فترة توقف المسلمين عن الرحيل إلى مكة خوفا من بطش القرامطة وكأنه لم يجد أمامه إلا أن يذوب لهفة وشوقا يشبهان تلهف الأسير المغترب إلى وطنه ، والراثية الحزينة إلى أخوَيْها المفقودَيْن ، والمجاهد النائي إلى أهله وماله وحماه وذوى قرباه .

وإذا بالشريف الرضى يسوق فى يائيته من الصور الفنية ما يقترب من لغة المعارضة للقصائد السابقة ، وإن شئت فقل أن تشابه الواقع النفسى قد فرض عليه ذلك التشابه ، أو لنقل إن حس اليائية بدا شديد القرب من هذ الأنماط من التجارب الحزينة المتميزة ، حيث يلتقى حولها شعراء تلك اليائيات جميعا ، فعلى لغة مالك يقول الشريف فى مطلع قصيدته :

أقولُ لركبٍ رائحينَ : لعلكـــــــم تحلون من بعدى العقيق اليمانيـــا

وكأنه يسقط حاجته النفسية من خلال أولئك الركب الرُحَّل ، بل يكاد يرثى نفسه إزاء ذهابهم إلى حيث لا يستطيع هو أن يذهب ، ولذا ينتقل من صيغة الرجاء التى استهل بها حديثه إلى صيغ من الأمر التي يزود بها الركب لإسقاط المزيد من حنينه ولهفته :

خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمـــى ونجداً وكثبان اللوى والمطاليـــــا
ومُرُّوا على أبيات حىٍّ برامـــــــةٍ فقولوا : لديغٌ يبتغى اليوم راقيـــا

وهنا تكون بداية اللقاء الفورى بينه وبين شعراء اليائيات من أصحاب تجارب الحنين وألم الغربة ، فيسجل ذكريات الأماكن ممزوجة بهذا الحنين متفاعلة مع ذلك البكاء ، إذ يردد لهفته إلى ذلك العقيق اليمانى ، ونجد ، وكثبان اللوى ، والمطالى ، ورامة ، ثم يكرر تصوير جوانب أخرى لتلك اللهفة - استطراداً - علىْ نَجْدخاصة حين يقرنها بذكرياته الموزعة بين الحجاز وبين الشمال ، وكأنه لايريد بقاءً فى العراق ، حيث لا يجد دواءه الذي يبحث عنه إلا